# «طوفان الأقصى» يهشّم ما تبقّى من «إسرائيل»!

أحمد عبدالرحمن
كاتب ومحلل سياسي

مرت أكثر من ٥ ساعات تقريباً على بدء الهجوم الكاسح الذي شنته المقاومة الفلسطينية على مستعمرات غلاف قطاع غزة، وهذه المرة من فوق الأرض، ومن الجو، والبحر، تحت غطاء كثيف من الصواريخ والقذائف التي تجاوزت حتى كتابة هذه السطور ٧٠٠٠ صاروخ.

وفي الحقيقة، لم يكن أشد المتفائلين في الجانب الفلسطيني يتوقع حدوث مثل هذا العمل الاستثنائي، وفي الجانب الآخر، لم يكن أكثر المتشائمين في الجانب الصهيوني، سواء كانوا من المستوطنين، أو من دوائر المخابرات والجيش يعتقدون بأن شيئاً مشابهاً يمكن أن تشهده مستوطنات الغلاف.

وحتى نكون منصفين وواقعيين فإن حجم المفاجأة المدوّية التي استيقظ عليها سكان الجانب الغربي من الخط الزائل، وهم سكان قطاع غزة، لم تكن أقل درجة من مفاجأة سكان الجانب الشرقي منه "المستوطنين الصهاينة"، والذين لم يكن يدور في خلدهم، أو حتى في أسوأ كوابيسهم أن يروا من نوافذ بيوتهم التي اعتقدوا أنها آمنة مقاتلي المقاومة وهم يتجولون في شوارع مستوطناتهم، ويطرقون على الأبواب بكل قوة، بل ويسوقون العشرات منهم كما تقول التقارير الواردة حتى الآن إلى أراضي القطاع.

وفي اعتقادي، أن ما جرى اليوم يمكن أن يُؤرّخ له بأنه من الأحداث المفصلية الكبرى في تاريخ شعبنا الفلسطيني العظيم، بل وفي تاريخ أمتنا العربية والإسلامية. وهذا التأريخ لن يكون في شقّيه العسكري والعملياتي فقط، بل يمكن أن يتوسّع ليشمل جوانب أخرى من قبيل القدرة على اجتراح المستحيل، والرغبة في كسر حدود اللاممكن، والذهاب في اتجاه تحقيق إعجاز فشلت فيه قوى كبرى، وعجزت عنه دول عظمى.

وحتى لا تأخذنا المشاعر الجيّاشة التي تحيطنا من كل جانب عن تحليل ما جرى، والتداعيات التي يمكن أن تترتّب عليه، دعونا نشير إلى بعض الملاحظات الهامة، والتي يمكن أن تشكّل العناوين الفرعية لهذه الملحمة الكبرى، والتي أسمع وأرى جزءاً من تفاصيلها أثناء كتابتي هذا المقال.

### حملة من التمويه

بدا واضحاً خلال المرحلة السابقة حجم عملية التمويه الذي قامت به المقاومة خلال الأسبوعين الأخيرين تحديداً. إذ بدا واضحاً حجم الرغبة الفلسطينية لا سيما من جانب حركة حماس في الرد على ما يجري في القدس من عدوان، إلى جانب الإجراءات الإسرائيلية التي هدفت إلى تشديد الحصار على قطاع غزة من خلال بعض التظاهرات على الحدود، والتواصل مع الوسطاء لرفع الحصار، وزيادة حجم المنحة المخصصة للموظفين والعائلات الفقيرة ومحطة الكهرباء.

وفي حقيقة الأمر، فإن ماكان يجري هو عملية تمويه مُحكمة، تم من خلالها توجيه كل الأنظار لا سيما الإسرائيلية منها نحو اهتمامات أخرى، ركّزت في معظمها على مواجهة التحدي الأمني في مدن الضفة، معتقدة أن بضعة ملايين من الدولارات، وعدة آلاف من العمال ستنهي المشكلة مع غزة، وسيعم الهدوء في المنطقة الجنوبية من جديد.

### تخطيط عملياتي مُحكم

بالاستناد إلى بعض الصور والفيديوهات التي ظهرت حتى الآن، والتي يشير معظمها إلى تمكّن المقاومين من اقتحام عشرات المغتصبات الصهيونية، وإحكام قبضتهم عليها، في مقابل حالة من الانهيار سيطرت على أداء الجنود الصهاينة، ضمنهم وحدات نخبوية من لواء "عوز"، الذي يُنظر إليه إسرائيلياً بأنه أفضل لواء مقاتل في "الجيش" الإسرائيلي، إضافة إلى مقاتلين من وحدة "اليمّام" ذائعة الصيت، يظهر من كل ذلك أن المقاومة خططت لهذا اليوم ببراعة وإتقان منقطع النظير، إذ أخذت في الاعتبار حجم القوات الإسرائيلية المنتشرة على الحدود، إضافة إلى أفضل الطرق وأسهلها للمرور إلى الجانب الشرقي منها، إلى جانب اختيارها التوقيت المناسب للبدء في التحرك الميداني، خصوصاً أن الفترة الحالية تشهد أعياداً يهودية يكون فيها الجنود والمستوطنون في حالة استرخاء تامة، وهو ما أدى إلى وصول المقاتلين إلى قلب المستعمرات الصهيونية على عمق يزيد على ١٠ كلم بسهولة ويُسر، وقبل أن يستيقظ الجنود أو المستوطنون من نومهم.

### تغطية نارية كثيفة

كان من المهم لنجاح عملية التوغل البري أن تكون هناك تغطية نارية مناسبة، بحيث ينشغل العدو في النظر باتجاه السماء، محاولاً تفادي أثر الصواريخ والقذائف التي انهمرت بشكل غير مسبوق، وساعياً لتفعيل قبته الحديدية التي انهارت بشكل كبير.

وهذا ما سمح للمقاتلين بالتوغل البري من أكثر من مكان، وعبر أكثر من وسيلة، والوصول إلى مناطق بعيدة نسبياً عن حدود القطاع والسيطرة شبه الكاملة على العديد من المواقع والمستوطنات، وقتل عشرات الجنود والمستوطنين وأسرهم كما تشير الكثير من المصادر حتى الآن.

### تعمية استخباراتية كاملة

على الرغم من أن هذه العملية النوعية احتاجت عدداً كبيراً من المقاتلين، الذين تحركوا بآلياتهم رباعية الدفع، ودراجاتهم النارية، إضافة إلى من تسلل من البحر، أو هبط من السماء، وما يمكن أن يحتاجه ذلك من تدريبات مكثفة بالذخيرة الحيّة لمدة تتجاوز الأشهر وليس الأسابيع، رغم كل ذلك، فشل العدو الصهيوني الذي يسيطر على أجواء غزة من خلال طائراته المسيّرة، وبعض عيونه المنتشرة في أكثر من مكان، ومن خلال اختراقه لشبكة الاتصالات السلكية الرسمية (الهواتف الأرضية)، والجوّالة من خلال الهواتف المحمولة، ومعظم الشبكات اللاسلكية ومواقع الإنترنت، في التقاط معلومة واحدة تشير إلى سعي المقاومة للقيام بمثل هذا الهجوم الاستراتيجي. واستمر هذا الإخفاق الاستخباري حتى بعد ساعات من بدء الهجوم.

> فشل العدو الصهيوني الذي يسيطر على أجواء غزة من خلال طائراته المسيّرة، وبعض عيونه المنتشرة في أكثر من مكان، ومن خلال اختراقه لشبكة الاتصالات السلكية والجوّالة، في التقاط معلومة واحدة تشير إلى سعي المقاومة للقيام بمثل الهجوم الاستراتيجي

### حرمان "إسرائيل" من مصادر قوتها

بما أن المقاومة الفلسطينية تعمل بأسلوب "الحرب اللامتناظرة"، ويعد حرمان العدو من مصادر تفوّقه أحد أهم مبادئها، فقد سعت المقاومة لمنع العدو من استخدام قوته النارية الهائلة ضد مقاتليها سواء أثناء تنفيذ العمليات داخل العمق الإسرائيلي، أو أثناء الانسحاب إلى داخل أراضي القطاع. وعلى رأس تلك الإجراءات التي حرمت المقاومة العدو من استخدامها كان إجراء "حنبعل"، الذي يستخدمه العدو عند أسر أحد جنوده، إذ يقوم بعملية قصف عنيفة باتجاه المناطق التي يعتقد أن المقاومين انسحبوا تجاهها، كما حدث في مدينة رفح بعد أسر الجندي "هدار جولدن" في عدوان ٢٠١٤.

في هذه المرة، ونتيجة العدد الكبير من الأسرى الصهاينة، ونتيجة الإرباك الحاصل داخل وحدات الجيش المنوط بها تنفيذ هذا الإجراء، والتي يتموضع معظمها في موقع كيسوفيم العسكري شرق دير البلح، ومواقع أخرى مقابل حدود مدينة غزة، لم يستطع العدو القيام بأي تحرّك مشابه، لأنه ببساطة سيقوم بقتل عدد كبير من جنوده ومستوطنيه، وهو ما سيفتح على الحكومة و"الجيش" أبواب جهنم من جانب الشارع الإسرائيلي.

ختاماً، نقول ونحن بانتظار أن ينجلي المزيد من الوقائع والمشاهد من غزة "طوفان الأقصى"، إن ما جرى اليوم هو هزيمة استراتيجية ساحقة تلقتها "إسرائيل" في عقر دارها، وأن توابع وارتدادات هذه الهزيمة على مستقبل هذه "الدولة" ستكون هائلة. بعد هذا اليوم لن تبقى سمعة "الجيش" الإسرائيلي كما اعتدنا عليها، "جيش" من فولاذ يقهر كل أعدائه، ويهزمهم بالضربة القاضية. من اليوم فصاعداً، يمكن النظر إلى هذه القوة الغاشمة بأنها وحش من غبار، يمكن بشيء من التخطيط، وبمزيد من الإرادة، أن تتم هزيمتها وقهرها. اليوم، نحن أمام لحظة فارقة يمكن البناء عليها لو تظافرت الجهود، واتحدت الساحات، واجتمعت الجبهات. لو حدث ذلك فعلاً في هذه المرحلة الحاسمة، ستكون الأمة أمام نصر كبير لم يحدث له مثيل من قبل.

# حرب تشرين التحريريّة.. تأريخٌ للمستقبل العربيّ

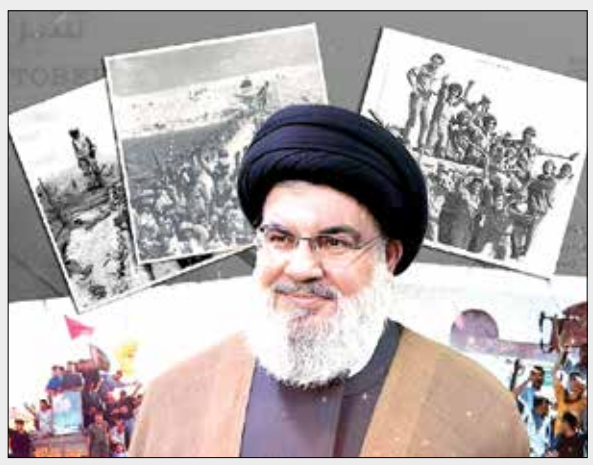

جو غانم
كاتب ومحلل سياسي

كيفما كان الواقع العربيّ الآنيّ والموقّت هذه الأيّام، فإنّ حرب تشرين الأوّل/أكتوبر التحريرية لم تكن مجرّد جولة أخرى من جولات الصراع مع العدو الذي يحتل فلسطين وأجزاء غالية من أرضنا العربية في سوريا ولبنان، بل كانت، ولا تزال، نقطة انطلاقٍ في تاريخ العرب ومستقبلهم؛ نقطة اتّكاءٍ للإرادة العربيّة التي تستطيع، متى شاءت، أنْ تستند إلى حقيقة قدرتها على الفعل والإنجاز وتغيير التاريخ وحجز المكان الأكثر احتراماً تحت الشمس.

في تلك اللحظة، عند الساعة الـ٢ و ١٠ دقائق من بعد ظهر يوم السبت، السادس من تشرين الأوّل/أكتوبر، عام ١٩٧٣، حدثَ ما لم يصدّقه العدو للوهلة الأولى، وما لم يتوقّعه في أي حال من الأحوال، وفقاً لما كان لديه من فائض قوةٍ وغطرسة ودعم عالميّ، على رغم كل التحذيرات والمعلومات التي جهد بعض الجواسيس العرب في إيصالها وتأكيدها. من هنا تحديداً، تبدأ أولى علامات الخصوصية التاريخية المهمة جدّاً لهذا الحدث الفارق.

فبعد الهزيمةٍ الساحقةٍ والمُهينة في حزيران/يونيو من عام ١٩٦٧، والتي تحوّلت إلى نكبةٍ جديدةٍ حفرت عميقاً في نفوس العرب من المحيط إلى الخليج الفارسي، وشكّلت هزيمةً نفسيّة خطيرة لعشرات الملايين منهم، لا تقلّ خطورتها أبداً عن هزيمة الميدان، وتركت جرحاً ظنّ الجميع، ما عدا قلّة قليلة، أنّه سيحتاج إلى عشرات الأعوام كي يندمل في الميدان، ودفعت عدداً من رموز "النخبة" العربية حينذاك إلى اعتماد تلك الهزيمة مرثيّةً أزليّة لأمّة العرب الآيلة إلى الضياع والفناء.

إنّ قرار المبادرة في دمشق والقاهرة إلى الهجوم العسكريّ هو، في حدّ ذاته، تحوّل فاصل في التاريخ العربيّ المعاصر، فكان الزمن زمن السطوة الإسرائيلية، زمن "الجيش الذي لا يُقهر"، زمنَ "نستطيع احتلال بلدانكم بفِرَقٍ موسيقية"، زمن التعميم والتكريس لنظرية أنّ العرب عاجزون، وأنّ حزيران/يونيو هو بوصلة العصر، وهو الدليل الدامغ الذي يوضح شكل مستقبل العرب والمنطقة، وبالتالي أيضاً وحتماً، زمن فرض القوة الأميركية الاستعمارية في المنطقة العربية، من خلال تحويل قاعدتها العسكرية الإجراميّة المتقدمة في فلسطين، إلى مركز القرار والهيمنة في المنطقة.

لذلك، كانت المبادرة العربية إلى الهجوم على الجبهتين السورية والمصرية بمثابة إعلان حرب على القوة الاستعمارية الرئيسة وعلى كلّ أعوانها وحلفائها في العالم، ولم تكن هجوماً على الجيش الصهيونيّ الذي جرى تجميعه من جهات الأرض الأربع، ليفرض ذلك الواقع، فحسب. التحوّل التاريخيّ الثاني، والذي لم يشهد العرب مثله منذ مئات الأعوام، كان تقاطر الكتائب العسكرية القتالية من كلّ البلدان العربيّة، وذلك ما يجب التركيز عليه وعدم إغفاله دائماً. لقد اضطرّ كلّ حاكم عربيّ إلى الوقوف عند كرامة شعبه وإعلان مشاركة بلاده في الحرب المجيدة التي تعني كل إنسان عربيّ من المحيط إلى الخليج الفارسي، ذلك لأنّ الفلاح المغربيّ في أقاصيّ الريف، كما العامل في أصغر معمل في حلب، والصياد العربيّ عند شواطئ عدن، كلّهم كانوا يشعرون بأنّ هزيمة حزيران/يونيو أذلّته وقصمت ظهره شخصيّاً، وأنّ ضياع الأرض العربية في فلسطين وسوريا ومصر ولبنان والأردن يعني ضياع الأرض التي يقف عليها في مستقبل الأيام، وأنّه، كابن أمّة كريمة، تعرّض لامتهان كرامته وامتحان وجوده. لذلك، لا يزال السوريون يستذكرون بسالة ضباط "التجريدة المغربية" وجنودها في هضاب الجولان، ويتحدثون بفخر كبيرٍ عن شجاعة الجزائريين والتونسيين والعراقيين، الذين قَدِموا من كلّ ناحية من الأرض العربية، من أجل فرض وجودهم الكريم على هذه الأرض، ولم يبخلوا بأرواحهم ودمائهم من أجل ذلك. كذلك، يفعل المصريون وهم يتذكرون شجاعة إخوتهم من الجنود والمقاتلين الذين قدموا من عموم بلدان الخليج الفارسي ليقاتلوا جنباً إلى جنب مع الجندي المصريّ.

التحوّل الثالث والمهمّ جدّاً في ذلك الحدث العربي والعالميّ الفاصل، هو انتصار العرب، بما توافر من عتاد وسلاح، على السلاح الأميركيّ والغربيّ الأحدث والأمضى في ذلك الوقت، والذي كان الغرب أغرق به الكتائب الصهيونية على مدى أكثر من ٢٥ عاماً، وتلك مصيبة كبرى بالنسبة إلى الولايات المتحدة الأميركية والقوى الغربية الاستعمارية الحليفة، والتي كانت تواجه الاتحاد السوفياتي وحركات التحرر والدول النامية في العالم بكل ما أوتيت من قدراتٍ وقوة.

وتحطيم أسطورة تفوّق السلاح الغربيّ على أيدي العرب يعني هزيمة قاسية للغرب في ذلك الصراع العالميّ المرير. أمّا الانتصار على القاعدة الاستعمارية، "إسرائيل"، فيعني دحر الغرب وهزيمة إرادته المهيمنة على هذه المنطقة حتى وقت طويل جدّاً، وسقوط كل مشاريعه التوسعية والناهبة، والتي أقيمت من أجلها قاعدة الإجرام تلك. لذلك كلّه، فعلت الولايات المتحدة الأميركية، ومعها بريطانيا وفرنسا وألمانيا وعدد من الدول التي تدور في هذا الفلك، كل ما يمكن فعله لمنع السوريين والمصريين، والعرب عموماً، من تحقيق نصرٍ حاسم ونهائيّ في تلك الحرب المجيدة. ولم تكتف تلك القوى بإنشاء جسور جويّة متواصلة ودائمة لمدّ الصهاينة بأحدث وأمضى أنواع السلاح والعتاد وبالرجال والمقاتلين أيضاً، بل فعّل كل هؤلاء قدراتهم السياسية لاختراق قرار الحرب والتحرير لدى القيادات العربية. واستطاع وزير الخارجية الأميركي حينذاك، هنري كيسنجر، الذي لم يُخفِ يوماً صهيونيّته الفاقعة وعداءه للعرب وحقوقهم، أنْ يُحدث ذلك الخرق في الجبهة السياسية المصريّة، ليُحوّل الرئيس أنور السادات حرب التحرير إلى "حرب تحريك"، وليكتفي من التاريخ بنصرٍ شخصيّ لا يتجاوز بعض كلمات المديح والثناء من مراكز القرار الاستعماري حول العالم.

يُصرّ قائد المقاومة العربية ورمزها في هذا العصر، السيد حسن نصر الله، على أنْ يستذكر حرب تشرين التحريرية ومعانيها في كلّ مناسبة، وأنْ يشرح للأجيال الحالية قيمة ذلك الحدث وأهميته في تاريخ الأمة ومستقبلها، وهو ما فعله قبل أيام فقط في آخر خطاب له، يوم الاثنين الفائت، في ذكرى المولد النبويّ الشريف، حين وصف حال كيان الاحتلال وقادته يوم هجوم الجيوش العربية في السادس من تشرين، بحيث عبّر عن "اختناق إسرائيل بكلّ ما للكلمة من معنى" في تلك اللحظات، وعن بحث قادة الاحتلال استخدام السلاح النووي للانتحار وهدم ما أمكن من المعبد فوق رؤوسهم ورؤوس العرب المنتصرين.

لقد وصف السيّد نصر الله حرب تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣، بالنصر التاريخيّ الذي منعت الولايات المتحدة وقوى الغرب، بكل ما أوتيت من قوة تدميرية ومن قدرات سياسية، أنْ يتحول إلى نصرٍ حاسم.

وحين يتحدث قادة المقاومة، في سوريا ولبنان وفلسطين وإيران والعراق واليمن، بلسانٍ واحد، عن حتميّة أنْ يكون ميدان المعركة المقبلة داخل الأرض الفلسطينية المحتلّة، وحين يُعبّر قادة العدو عن قلقهم الجدّي على مصير الكيان في الحرب المقبلة مع محور المقاومة، وحين تواجه سوريا هذا العدوان المرير والطويل من دون أنْ تنكسر إرادة دمشق أو تلين، فهذا يعني أنّ فصل تشرين الأخير لم يُكتب بعد، وإنّما تُبرى الأقلام بالدم والنار، بانتظار اللحظة القريبة الحاسمة في تاريخنا جميعاً.

> حرب تشرين لم تكن مجرّد جولة أخرى من جولات الصراع مع العدو الذي يحتل فلسطين وأجزاء غالية من أرضنا العربية في سوريا ولبنان، بل كانت، ولا تزال، نقطة انطلاقٍ في تاريخ العرب ومستقبلهم